خطبة صلاة الجمعة 11/ 10/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(فاتني قطار الزواج)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1]، قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10]، قال المفسرون: معنى قوله: هيئ لنا من أمرنا رشداً: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة التاسعة في سلسلة (**دليل إرشادي**)، تتناول كلُّ خطبةٍ منها مشكلةً اجتماعيةً أسريةً أو ماليةً أو أخلاقيةً وقع فيها عدد منا، وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **فاتني قطار الزواج**

المسألة: جاءني الخاطبون مراراً خلال سِنِي حياتي، إلا أنهم كانوا ينصرفون ولا يعودون، حيناً لأني لا أجدهم مناسبين لي، أو لا أجد الوقت مناسباً للزواج، وحيناً لأني لم أكن أناسبهم، مع أني متخرجة في الجامعة ومحافظة على أدبي وأخلاقي، ويقول من حولي بأني جميلة.

اليوم وقد جاوزت الأربعين أشعر بالألم يعتصرني؛ لأنني لم أرضَ بأيٍّ منهم، وأحزن لأنني لن أكون أماً، وأرى بأني أضعت أعوامي.

أشاهد في عيون أبويَّ الخوفَ عليّ، وفي عيون صديقاتي الشفقةَ عليّ، وفي عيون الناس العتْبَ عليّ، سئمتُ الحياة ومللتُها، فبماذا تنصحني؟.

الدليل الإرشادي:

في الدليل ثلاث فقرات: الزواج قدر، نجاحكِ ليس موقوفا على زواجِك، عُزَّاب سادوا وشادوا.

أولاً: الزواج قَدَر:

تعلمون أيها الإخوة أن الحياة والموت قدر، وأن الصحة والمرض قدر، وأن الغنى والفقر قدر، وأن العسر واليسر قدر، وصحيح أن الإنسان يملك السعي بالأسباب ولكنَّ قَدَرُ الله غالب وقضاؤه نافذ، **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلام، وجَفَّتِ الصُّحف»** [البخاري] ومِثْلُ المرض والصحة، والفقر والغنى، والكثرة والقلة، والعسر واليسر؛ الزواجُ وعدمُه، فالزواج قَدَر وعدمُه قَدَر.

ولعل بنتاً من بناتنا تكون في أحسنِ الرتب العلمية وأفضلِ المنازل الخُلقية وأجملِ الصفات الخِلقية ولا يُكْتَبُ لها زواج، ولعل ابنا من أبنائنا كذلكِ، والخيرة -بلا ريب- فيما يختاره الله، ولو اطلعتم الغيب لاخترتم الواقع، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]، وصحيح أن الزواج كمال وفيه خير كبير، ولكنه في الوقت نفسه

مسؤولية وفيه امتحان كبير، ولئن كان العازب مسؤولاً عن نفسه وعما يقدم لدينه ومجتمعه وأسرته الأصلية، فإن المتزوج مسؤول عن هذا ومسؤول فوق هذا عن أسرته الجديدة، فالرجلُ على أَهل بيتِهِ راع، وهو مَسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ على بَيْتِ زوجها، وولدِهِ، وهي مسؤولَةٌ عنهم، فمن أكرمها الله تعالى من بناتنا بالزواج فلتحمد الله ولتعلم أنها مسؤولة عن زوجها وأولادها فلتُعِدَّ للجواب عُدَّتَه، ومن لم يُقَدِّر اللهُ لها زواجاً فلتحمد الله، ولتعلم أن الله خفف عنها السؤال يوم القيامة وفرّغها للعلم النافع والعمل الصالح.

ثانياً: نجاحكِ ليس موقوفاً على زواجِك:

ليس النجاح موقوفاً على الزواج وحدَه، فالعلم النافع والعمل الصالح بابان عريضان للرفعة والنجاح، وعدم الزواج معين على التحصيل الأعلى لدرجات العلم، وعلى التفرغ الأكثر للعمل الصالح.

فكم من فتاة لم يُتَح لها الزواج؛ تفرغت للقرآن الكريم تتعلمه وتعلمه فغدت جماعةً وهي فرد، وباتت أمّةً وهي واحدة.

وكم من فتاة لم يتح لها الزواج؛ تفرَّغَت لعلوم الطب أو الهندسة أو الشريعة أو الحقوق أو الأدب أو التربية فصارت بين الناس عَلَماً ومشت درب النجاح قُدُماً.

وكم من فتاة لم يُتَح لها الزواج؛ أنشأت مع أخواتها جمعية خيرية أو تنموية فأشار لها الناس بالبنان وأجرى الله على يديها الخير للإنسان وللأوطان.

وكم من فتاة لم يُتَح لها الزواج؛ قامت في صفوف الدرس معلمة فربت جيلاً فجيلاً وغيرُها من المتزوجات ربت قليلاً، وتخرج بها الكبار ففاقت غيرها وسبقت أقرانها.

فلا يعتصرنّ الألم من فاتها قطار الزواج من بناتنا، ولا تحزننّ إذ لن تصير أماً، ولا تحسبنّ أنها أضاعت أعوامها، ولا تسأمنّ من الحياة، ما دامت تسعى للنجاح في العلم النافع والعمل الصالح.

ولتعلم أن السادة الشافعية فضلوا التفرغَ للعلم والعبادة على الزواج لمن كان معتدل المزاج، وقالوا: إذا كان الشخص معتدل المزاج، بحيث لا يخشى الوقوع في الزنا إن لم يتزوج، فالزواج في حقه مباح، وإن التفرغ للعبادة أو الاشتغال بالعلم أفضل من الزواج في حقه؛ لأن الله تعالى مدح سيدنا يحيى عليه

السلام بقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: 39]، والحصور: الذي لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن، فلو كان الزواج أفضل لما مُدِحَ بتركه.

ثالثاً: عزَّاب سادوا وشادوا:

في اللغة: العَزَبُ والعازب: من لم يتزوج من الرجال، والعَزَبَة: من لم تتزوج من النساء، والعُزّاب: الذين لا أزواج لهم، من الرجال والنساء، ولا يصح في اللغة أعزب ولا عزباء.

وهذا ذكرٌ لخمس فاضلات من بناتنا مررن عبر تاريخنا الماضي والحاضر، لم يتيسر لهن زواج ولكنهن حققن رتبا عالية في العلم والعمل، وتقدمن أبناء وبنات وقتهن، وفيهنّ لبناتنا المتزوجات والعَزَبات أسوة.

1- زينب بنت الكمال المقدسية : قال الإمام الذهبي في معجم الشيوخ الكبير: شيخة صالحة متواضعة خيّرة متوددة كثيرة المروءة، لم تتزوج، سمعت العلم من كبار العلماء وأجازوها، وتفردت، وطال عمرها واشتهر ذكرها.

2- كريمة المروزية: جاء في سير أعلام النبلاء: (الشيخة العالمة الفاضلة المسندة المجاورة بحرم الله، سمعَتْ صحيح البُخَارِيّ وروته مرات كثيرة وَلَهَا فَهْمٌ وَمَعْرِفَة مَعَ الخَيْر وَالتَّعبد، ماتت بكرًا لم تتزوج أبدًا وَكَانَتْ قَدْ بلغتِ المائَة، كان بعض علماء وقتها يقولون: وَهل رَأَى إِنْسَانٌ مِثْلَ كَرِيْمَة؟!)

3- عائشة بنت أحمد القرطبية: أديبة، شاعرة، من أهل قرطبة. كانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وعنيت بجمع الكتب، فكانت لها خزانة كبيرة، وماتت عذراء لم تتزوج سنة 400 هجرية، جاء في الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: (قال ابن حبان: لم يكن في زمانها من نساء الأندلس من يعادلها علماً وفهماً، وأدباً وفصاحةً وشعراً، كانت تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، ولا ترد لها شفاعة عندهم، وقال العلماء: إنها من عجائب زمانها وغرائب أوانها)

4- درية العيطة: ولدت في بيت مشهور بمجالس العلم والذكر في دمشق القديمة، وقد وهبت نفسها للدعوة إلى الله، نالت شهادة الحقوق من جامعة دمشق، وعمّرت وقتها بتدريس النساء خاصةً وقلّما يمضي يوم إلا ولها فيه موعظة أو درس... ولها في الفقه الشافعي مؤلف مهم في (فقه العبادات) نال القَبول والشّهرة وترجم إلى الإنكليزية وطبع مرات كثيرة، توفاها الله سنة 2015 عن عمر يناهز

٧٨ عاماً، ولم تتزوج أبداً، سألتها سائلة يوماً: تبت الى الله ولكني دائمة الخوف من أثر الماضي، فأجابتها على الفور: أكثري من ذكر الله.. فإن الماء إذا كثر لم يحمل الخبث!

ذكرت مرة في درسها أن أقسام المياه الفقهية طاهر مطهر، وطاهر غير مطهر، ومتنجس، وكذلك القلوب: طاهرة ومطهرة، وطاهرة غير مطهرة، ومتنجسة بالإصرار على المعاصي والآثام.

5- سميرة الزايد : نشأت في دمشق، حازت على شهادتين جامعيتين في الشريعة والأدب العربي، عُرف عنها استغلالها للوقت وازدحام برنامجها بالعمل العلمي والتربوي، وتفانيها في خدمة الدين، لها دروس ومؤلفات فريدة في السيرة النبوية: دروس من السيرة في مجلدتين، والجامع في السيرة النبوية في ست مجلدات ومختصره في مجلدتين ، قدم له الدكتور البوطي رحمه الله ومما قال في مقدمته: (لقد كان من أفضل ما كتب في السيرة النبوية في هذا العصر تلك الموسوعة التي ظهرت باسم "الجامع في السيرة النبوية" وكانت قد عكفت على إخراجها وضبطها فتاة من أبرز الفتيات المنصرفات إلى خدمة هذا الدين الإسلامي العظيم، علماً وتعليماً ودعوة، وهو جهد سبقتْ فيه بحمد الله الرجال في هذا العصر). توفى الله الأستاذة سميرة الزايد عام 2019 وقد جاوزت السبعين، ولم تتزوج قط.

وغير هؤلاء النسوة الأعلام في عالمنا العربي والإسلامي كثير.

فمن لم تتزوج من بناتنا وفاتها قطار الزواج فلها فيهن أسوة وفي سيرتهن سلوة.

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول للأخت الكريمة صاحبةِ المسألة وأشباهِها: اذكري -أختنا- أن الزواج قدر، وأن الخير فيما يختاره الله، وصحيح أن الزواج كمال وفيه خير كثير، ولكنه في الوقت نفسه مسؤوليةٌ وفيه امتحان كبير، فمن لم يُقَدِّر اللهُ لها زواجاً فلتحمد الله، ولتعلم أنّ الله خفف عنها السؤال يوم القيامة وفرّغها لتشق طريق نجاحها في العلم النافع والعمل الصالح، فنجاحك في الدارين ليس موقوفاً على الزواج وحده، ولاريب أنّك تعرفين عدداً ممن سدن في الحياة ولم يكن تيسر لهن زواج، وقد عرضت الخطبة بعضهن، والله أعلم.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

والحمد لله رب العالمين